كتاب السياسة

للوزير نظام الملك

للدكتور عبد الوهاب عزام

الفصل الأول

فى أحوال الناس وتقلب الزمان ، ومدح ملك العالم غياث الدين والدنيا قدس سره (١)

الله تعالى يجتبى فى كل عصر واحداً من خلقه ، ويجمّله بالفضائل الملكية ، وينوط به مصالح الدنيا وراحة الناس ، ويغلق به باب الفساد والفتن والاضطراب ، ويمكن هيبته وحرمته فى قلوب الخلق وعيونهم ، ليعيش الناس فى عدله ، ويأمنوا فى سلطانه ، ويرجوا بقاء دولته

وإذا عصا الناس الشريعة واستخفوا بها وقصروا فى إطاعة أوامر الله تعالى فأراد أن يعاقبهم ويذيقهم جزاء أعمالهم ، ويحل بهم شؤم عصيانهم — لا أرانا الله مثل هذا الزمان ، ولا ابتلانا بمثل هذا الشقاء — يحرمهم الملك الخيّر ، فتختلف بينهم السيوف وتسيل الدماء ، ويغلب كل قوى على ما يريد حتى يهلك هؤلاء المجرمون فى هذه الفتن وهذا القتال . كمثل النار تشتعل فى القصب فتحرق كل يابس ، وتتعدى إلى كثير من القصب الرّطب

الله تعالى يمنح واحداً من عباده السعادة والدولة ، ويرزقه الإقبال على قدره ، ويهبه العقل والعلم ليسوس بهذا العقل والعلم كل واحد من الرعية على الوجه الذى يصلحه ، ويضع كل واحد فى مرتبته ؛ ثم يختار رجاله وعماله من الناس ، ويوفى كلا منهم درجته ، ويعتمد عليه فى كفاية أمور الدين والدنيا

ويكفل الراحة لمن يسلك سبيل الطاعة ويقبل على عمله من رعيته ليعيشوا مغتبطين فى ظل عدله

وإذا تجاوز أحد عماله حدّه وأطال يده فإن أصلحته الموعظة والتأديب والتأنيب ، واستيقظ من نوم الغفلة ، حفظ عليه عمله ومنصبه ، وإن تمادى فى غفلته لم يستجز إبقاءه فى عمله واستبدل به من هو أهل للعمل

وكذلك من جحد من الرعية حق النعمة ، ولم يعرفوا قدر الأمن والراحة ، واعتقدوا الخيانة وأبدوا التمرد ، وجاوزوا حدودهم يعاقبهم على قدر جرمهم حتى يتوبوا

ثم على الملك بعدُ أن يدأب فى عمارة المملكة فيحفر القنوات ويشق الأنهار ، ويمد الجسور على الأنهار العظيمة ، ويعمر القرى والمزارع ، ويبنى الحصون ، ويشيد المدن الجديدة ، والأبنية الرفيعة ، والقصور البديعة ، ويقيم الربط على الطرق السلطانية ، فيخلد بهذه الأعمال ذكره ، وينال ثوابها فى الدار الآخرة ، ويتصل الدعاء له بالخير ...

ولما أراد الله سبحانه أن يجعل هذا العصر زينة العصور الماضية وغرة مآثر الملوك السالفة ، ويرزق الناس السعادة التى لم يرزقها أحد من قبل اختار ملك العالم السلطان الأعظم من أصلين عظيمين

(١) يعد السلطان ملكشاه

أيها الشاهُ تهنّا   تلك أوقاتُ التهانى
بالرِّفاء والبنين   دائماً طول السنين
إنه عرسُ البدورْ   قد تجلَّى فى السماء
عرس أملاكٍ وحور   لا رجالٍ ونساء
بالرِّفاء والبنين   دائماً طول السنين
التقى التاجانِ فيهِ   تاج رمسيس وكسرى
يا بلادَ الفرس تيهى   يا بلادَ النيلِ بشرى
بالرِّفاء والبنين   دائماً طول السنين
مصرُ قد حان السرورْ   طبتِ يا مصرُ وطابا
رقص النيلُ الوقورْ   وجرى تبراً مذابا
بالرِّفاء والبنين   دائماً طول السنين
بلّغ الشرقَ مناه   ذلك العُرسُ السعيد
دمت فى عزٍّ وجاه   أيها الشرقُ المجيد
بالرِّفاء والبنين   دائماً طول السنين

ستار

محمود غنيم

ورثا الملك والسيادة أباً عن أب إلى أفراسياب العظيم[1]، وجمد بالكرامة والعظمة التى لم يظفر بها الملوك السابقون

فأنعم عليه بما يحتاج الملوك إليه من حسن المنظر ، وجمال الطبع والعـــدل والرجولة والشجاعة والفروسة ومعرفة أنواع الســلاح واستعمالها ، والتحلى بالفضائل والشفقة والرحمة بالخلق ، ووفاء النذور والوعود ، وصحة الدين والاعتقاد وطاعة الحق تعالى ، وتأدية النوافل من صلاة الليل ، وكثرة الصوم ، وإعظام أهل العلم وإكرام الصالحين والزاهدين والحكماء ، وتواتر الصدقات والإحســان إلى الفقراء ، ومعاشرة الرعية والعمال بخلق حسن ، وكف الظالمين عن الرعية . لاجرم سخر الله له ملك العالمين على مقدار جـدارته ، وحسن نيته ، ومـد هيبته وسياسته إلى كل إقليم حتى يؤدى الناس الخراج إليه ويأمنوا بالتقرب من سطوته . وإن كان بعض الخلفاء أوتى بسطة فى الملك وسعة فما فرغوا وقتاً من القلق وخروج الخوارج . وفى هذا العهد المبارك لا نجـد — بحمد الله — أحداً ينطوى على خلاف أو يخرج رأسه من ربقة الطاعة

أدام الله هذه الدولة إلى قيام الساعة وأبعد عن هذه المملكة نظر الســوء وعين الكمال[1] ليعيش الناس فى عدل ملك العالم وســياسته ويديموا دعاء الخير له

وإذ كانت حال الدولة كما وصفت كان العلم والبصر بالسنن الحسنة على مقدار هذا ، والعلم كشمع ينشر ضوءاً كثيراً فيهتدى النــاس به الطريق ، ويخرجون من الظلمات ، ولايحتاجون إلى دليل ولـكن تدبير الملك يعجز عنه العبيد ، وهم لايبلغون درجة عقله وعلمه. فلما أمر هذا العبد أن ا كتب طرفاً من الســير الطيبة التى لا غنى للملوك عنهــا ، وكل ما عمله الملوك الماضون ولا يعمل الآن من حسن أو قبيح ، وكل ماسمعت فى ذلك أو قرأت أو علمت فكتبت إطاعة للأمر العالى هــذه الفصول بالإجمال وذكرت فى كل فصل مايلائمه بعبارة واضحة ، بتوفيق الله عز وجل .

عبد الوهاب عزام

(١) أفراسياب ملك توران فى قصص الشاهنامة

(١) عين الكمال : عين الحاسد التى تصيب الشىء الذى بلغ كماله

من البرج العاجي

ليس على الأرض أخطر ولا أقوى من آدمى يعيش من أجل فكرة . هذا الآدمى الذى ركز كل وجوده فى فكرة كما تتركز أشعة الشمس فى عدسة ليستطيع أن يحدث مثلها حريقاً مخيفاً أو نوراً وهاجاً ساطعاً . إن أغلب الأنبياء والرسل وقادة الفكر وعظماء التاريخ الذين قلبوا العالم أوملئوه ضوءاً وجمالاً كانوا كذلك : أشعة متجمعة فى عدسة فكرة. إنهم لم يعيشوا للحب والحياة؛ إنما عاشوا من أجل فكرة.

ذلك خاطر مر برأسى فى لحظة من اللحظات . ولست أدرى أأنا مصيب فيه أم أنه عزاء جميل أدخله على نفسى كلما ذكرت وأيقنت أنى أنا أيضاً آدمى لم يخلق كى يعيش للحب والحياة . لماذا أعطى دائماً الفكرة ثمناً أغلى من حياتى ، دون أن أشعر ودون أن أريد ؟ آه . . . لو أتيح لى أن أعيش حياتى كما أحب ؛ ولو سمح لى أن أقدر الحياة كما يقدرها السعداء من الآدميين ! لقد منحنى الله من أسباب النعيم ما لم يتيسر مثله للكثيرين ، فلم أبسم ولم أسعد ؛ فقد عافت نفسى مائدتى المنمقة وسيارتى اللامعة ومسكنى الرحب . آه . . . إن أجمل أفكارى ما ظهرت إلا أثناء سيرى البطىء على الأقدام . وإن ألذ أكلة عندى هى ما اقتصرت على لون واحد من الطعام . وإن خير مسكن لى هو حجرة واحدة أضع فيها كل ما يربطنى بالوجود من كتب وورق وفراش وثياب . لقد صحت يوماً من أعماق نفسى : « اللهم أتم نعمتك علىّ وجردنى من كل هذا النعيم الذى لا أفهمه ، واملأ قلبى بحب نورك وحده ، فبه تزهر كل فضائل الآدمية كما يزهر النبت تحت الشمس الحارة البارة ! » . وكان لى ما أردت ، وانقطعت للفكر وتجردت . ولكن . . .

لكن هل كل من تجرد من حياته فى سبيل الفكر ينظمه الزمن فى سلك العظماء ؟ لست أظن . وهنا الكارثة . هنالك رجال خلعوا رداء الحياة دون أن يلبسوا الفكر ثوباً وضاء . أولئك هم التعساء فى الدارين . أخشى أن يكون قد كتب علىّ مصير هؤلاء ! .

توفيق الحكيم